إشكالية (الهوية) و (الانتماء) في أدب المنفى الرواية الأمريكية العربية النسوية نموذجاً *

أ. مديحة عتيق **

* تاريخ التسليم: 8/ 12/ 2014م، تاريخ القبول: 28/ 2/ 2015م.
** أستاذ محاضر/ قسم اللغة العربية والأدب العربي/ جامعة محمد الشريف مساعدية/ الجزائر.

ملخص:

تمثّل الرواية الأمريكية العربية النسوية جزءا من الأدب العربي الأنجلوفوني، ونعني به الأدب المكتوب بالإنجليزية بأقلام كتّاب عرب أو من أصول عربية، يعيش أغلبهم في المنفى، في بريطانيا والولايات المتحدة على وجه التحديد، ستركّز الورقة على رواية «الفتاة ذات الوشاح النّارنجي» للكاتبة الأمريكية السورية مهجة قحف لتطرح إشكاليات «الهويّة» و«الانتماء» في الكتابات العربية الأنجلوفونية، وستطرح هذه الرواية تحديدا سؤالاً كيف يمكن أن تكون عربيا وأمريكيا ومسلما في الوقت ذاته؟ وسيحيط بهذا السؤال الجوهري إشكاليات أخرى على غرار: ما الهوية الدينية/ الثقافية؟ ما ظروف ومشكلات الانتماء عند المسلمين المقيمين بأمريكا؟ وكيف إذا تعلّق الأمر بالمرأة المسلمة؟ وما موقف النسوية الغربية من هذا الأمر؟

الكلمات المفتاحية: الرواية الأمريكية العربية النسوية– الهوية الدينية– النسوية– المجتمع الأمريكي العربي– الاستشراق– التمثيلات النمطية.

Issues of «Identity» and «Belonging» in Exile Literature: The Feminist Arab American Novel as a Case Study

Abstract:

The feminist Arab American novel is an integral part of Arab Anglophone Literature written in English by Arab authors who mainly live in UK and US. The paper concentrate on Mohja Kahf's «The Girl in The Tangerine Scarf» to explore the issues of identity and belonging in their writings. This novel discusses how a person could be an Arab, American and Muslim simultaneously. Other issues are discussed such as: what is religious or cultural identity? What are the circumstances of Muslims' belonging in America? What about Arab American Muslim Women? What is the Attitude of Western Feminism toward Arab Muslim Women?

Keywords: *Feminist Arab American Novel, feminism, religious identity, Arab American Community, Orientalism, stereotypical representations.*

المقدّمة ـ نشأة الخطاب النسوي الأمريكي العربي:

شكّلت النساء العربيات نسبة معتبرة من عدد المهاجرين العرب إلى العالم الجديد (أمريكا) ، ولم تتوقف جرأتهنّ على المغامرة والسفر إلى أصقاع مجهولة فحسب بل امتدتّ إلى إصرارهنّ على فرض وجودهنّ وأصواتهنّ في هذا العالم الجديد، فقد هاجرت نساء كثيرات بمفردهنّ، أو أخذن معهنّ أطفالهن أو تركن وراءهنّ أزواجهنّ.، وكانت معظمهنّ نساء مثقفات، فيهنّ الطبيبة، والكاتبة والتاجرة، والأديبة، والصحفية «وقد ضمّت الصحافة الصادرة من 1910 إلى 1920 أصواتا نسائية كثيرة لقانونيات، وطبيبات، وخرّيجات الجامعة، والطيّارات، والموسيقيّات، (...) **وظهرت منظّمات نسائية كثيرة بعضها أكاديمي، وبعضها نشاطيّ، ومنها**:

- الشبكة الأمريكية العربيةّ النسوية Feminism Arab American Network
- جمعية دراسات نساء الشرق الأوسط

Association of Middle East Women's Studies .

- اتحاد جمعيات النساء الفلسطينيات في شمال أمريكا

The Union of Palestinian Women's Associatiob in North America» [1]

واجهت المرأة العربية منذ وطئت قدماها العالم الجديدة تحدّيات كثيرة ومضايقات عديدة حفّزتها حينا، وعرقلتها أحيانا أخرى في سعيها إلى إثبات نفسها بصفتها امرأة أوّلا، وعربية/ مسلمة ثانيا، وأمريكية عربيّة ثالثا، لذلك كانت التحدّيات جنسية، ودينية، وعرقية سياسية. **وهي تحدّيات متداخلة لكنّنا سنحاول أن نفككّها شكليا كما يأتي**:

♦ **التحدّي الجنسي**: كان مصدره الرجال عموما –سواء أكانوا الأمريكان أم الشرقيين– ، الذين اتفقوا على النظر إليها كائنا دونيا أو مصدر متعة ولذّة جنسية بحتة، و غطّى الرجل الغربي نظرته بغلاف التحرّر والموضة والتقدّم، وغلّف الرّجل الشرقي نظرته الشهوانية بغلاف الدّين [الإسلامي على وجه التحديد] حيث أوّل نصوصه بما يتّفق ورغباته الامتلاكية لجسد المرأة، بعبارة أخرى» وقعت النساء الأمريكيات العربيات بين الصور المعولمة للأنوثة أو الجمال الأنثوي الذي يرادف السلعة لدى الغرب، والمفهوم العربي المتزمّت للأنوثة على أنّها «شيء» يحميه الرجل ويخفيه خلف الحجاب» [2]

♦ **التحدّي السياسي/ الديني**: تتقاسم المرأة الأمريكية العربية الرجل الأمريكي

العربي معاناته من النظرة السلبية التي كرّسها الخطاب الغربي/ الأمريكي المهيمن عن العرب، والعرب المسلمين تحديدا عبر إعلامه وأدبياته، إذ عكف على تصوير العرب بصورة المتخلّفين، الإرهابيين، والمتسلّطين، والمكبوتين جنسيا...

وتزداد الصورة سلبية إذا تعلّقت بالمرأة العربية وبخاصّة المسلمة، تعبّر الكاتبة الأمريكية العربية آمال عبد الرازق عن معاناتها من هذه التنميط السلبي بقولها»... إنّني متعبة من الطريقة التي ينظر بها النّاس إليّ في المحلات، كما لو أنّني غريبة قادمة من كوكب آخر، تتبع بعمى زوجها الذي تزوّج آلاف الزوجات الأخريات، أو كما لو أنّني أخفي قنابل يدوية في ثيابي الفضفاضة.. » [3]

يظهر هذا المقطع المرأة العربية كائنا سلبيا مضطهَدا أو مجرّد متاع جنسي ضمن محيط أكبر أسماه الخطاب الاستشراقي «الحريم» وتفّنن في تصويره تصويرا غرائبيا، والذي سيكون أحد التحدّيات الاستشراقية التي ستقاومها الكاتبة العربية الأنجلوفونية.

تواصل الكاتبة آمال عبد الرازق تصوير معاناتها من نظرة الأمريكان لها والتي تحتكم إلى الأحكام المسبقة والتعصّب حتّى وإن أظهرت لهم العكس، تقول».. يستطيع المرء أن يدرك كم يُصدَم النّاس حين يعلمون أنّني امرأة عربية، ومع ذلك متعلّمة، وذات شهادة جامعية، وأنّني أمّ لثلاثة أولاد، وأنّني الزوجة الوحيدة لرجل ليس إرهابيا، وأنّه يحبّني ويحترمني، وتزداد دهشة الناس حين يعلمون أنّني متحجّبة، ومع ذلك أدعو نفسي «نسويّة (Feminist) كما لو أنّ كلمتي «متحجّبة» و»نسويّة» متناقضتان» [4]

♦ **التحدّي الديني**: يحيلنا هذا الكلام إلى أهمّ التحدّيات التي تواجهها المرأة الأمريكية العربية في أمريكا، وهو «الحجاب» الذي سيكون مادّة دسمة للكتابات الأنجلوفونية العربيّة النّسوية، .. وباختصار، اختزلت المرأة العربية وبخاصّة المسلمة في الخطاب الغربي في صورتين: إمّا أنّها كائن غير مرئي ملفّع بالسواد من رأسه إلى قدميه، أو أنّها راقصة لعوب ومغرية همّها الوحيد أن تثبت أنوثتها بنصب حبالها لاقتناص الرّجل، ..

وأمام هذه الصور السلبية، والمشاعر المعادية، والقناعات المتعصّبة اختارت المرأة الأمريكية العربية «الكلمة» لمقاومة هذه التحدّيات مقتدية بشهرزاد، فراحت تروي قصصها وتجاربها شعرا ونثرا علّها تستطيع أن تقوّض تلك الصورة، وتنشئ أخرى بديلة أكثر إيجابية وموضوعية..

ظهرت أقلام نسويّة كثيرة في المشهد الأدبي الأمريكي العربي التي تحاول شعرا و إبداعا ونقدا تأسيس «حركة نسويّة أمريكية عربية» لديها أجندتها الخاصّة مبتعدة أو على الأقلّ مستقلّة عن «الحركة النسويّة الغربية/ الأمريكية» لاختلاف المطالب والأولويات، فقد

«بدأت الحركة النسوية الأمريكية العربية عام 1983 بتأسيس الشبكة النسوية الأمريكية العربيةّ Feminism Arab American Network كردّ فعل على رفض الجمعية الأمريكية الوطنية لدراسات المرأة إدانة الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 ممّا أشعرهنّ بأنّهن يُعتبَرن جنسا أدنى في نظر التيار العام النّسوي» [5] لذا كانت النسوية الغربية تحدّيا جديدا للخطاب النسوي الأمريكي العربي، فقد روّجت تلك النسويّة صورا سلبية عن المرأة العربية/ المسلمة، فبقدر ما تحدّثت عن نضال المرأة الغربية وكفاحها لتحرير نفسها من السلطة الذكورية الغربية، فقد صوّرت المرأة العربية/ المسلمة كائنا مسكينا، خانعا، مقهورا، لا حول له ولا قوّة، وجعلت أقصى اهتماماته التحرّر من الحجاب، وسلطة الأب والزوج، ومحاربة تعدّد الزوجات، ... الخ

أمّا على المستوى الروائي فقد ظهرت أقلام روائية نسويّة كثيرة نذكر منها سوزان أبو الهوى مؤلفة رواية (صباح في برلين) (Morning in Berlin) عام2010، وديانا أبو جابر مؤلفة (الجاز العربي) (Arabian Jazz) عام 1993و (الهلال) (Crescent)عام 2003، وقد انخرطت هاتان الروائيتان وغيرهما في قضايا الهويّة المزدوجة بين الأصول العربية والواقع الأمريكي، كذلك ضغوط العنصرية العرقية والدينية والسياسية تجاه العرب المقيمين بأمريكا ممّا ولّد عقدة نفسية وسؤالا محيّرا عن الهويّة والانتماء، وهو الموضوع الذي تطرحه مهجة قحف بدورها التي سنقف عند روايتها الوحيدة (The Girl in The Tangerine Scarf)

1. مهجة قحف (1967-) (Mohja Kahf):

هي شاعرة وروائية وكاتبة صحفية أمريكية مسلمة، نشأت في سورية لوالدين مصريين، رحلت إلى الولايات المتحّدة الأمريكية عام 1971، تشتغل قحف أستاذة الأدب المقارن في جامعة Arkansas، كما أنّها عضو في رابطة النّساء المسلمات في الولايات لملمتّحدة الأمريكية. وهي كاتبة أكاديمية جريئة وبخاصّة في دراستها Western Rep-resentations of The Muslim Women From The Termagant To Odalisque" (التصوّرات الغربية للمرأة المسلمة: من السليطة إلى المحظيّة)

وانتقلت أطروحاتها الجريئة من دراساتها الأكاديمية إلى كتاباتها الصحفيّة وبخاصّة في عمودها الصحفي كما تذكر ليلى المالح "الجنس والأمة"(Sex and Umma) وهو تقليد لعنوان السلسلة التلفزيونية " (Sex and City TV series) الذي تحاول أن ترفع فيه الحرج عن أهمّية الجنس في الثقافة الإسلامية، وتسعى جاهدة كي تثبت أنّ الإسلام ليبرالي ومنفتح على هذا الموضوع وفق ضوابطه ومعاييره الخاصّة.

وأثارت أفكارها حفيظة بعض المسلمين المتشدّدين داخل أمريكا وخارجها، وصل الأمر إلى تهديدها بالقتل، « فبالنسبة إلى الكثيرين هي كاتبة مثيرة للجدل، ففي صورها، وفي المناسبات العامّة تظهر مرتدية خمار تتمسّك به على أنّه شعار لهويّتها المسلمة (...) وتهزأ بالسلوكات الشاذة التي تمارسها الجالية المسلمة في الولايات المتّحدة الأمريكية، ومع ذلك تقدّم نفسها على أنّها مفكّرة ليبرالية، ومسلمة ورعة بالقدر نفسه» (6)

2. الفتاة ذات الوشاح النارنجي:

إنّها روايتها الوحيدة، تستقي مادّتها السردية من مخزون ذاكرتها، وأيّام طفولتها في دمشق، لا تختلف مهجة قحف عن معظم المهاجرين «الذين يسعون إلى إعادة خلق بشكل بروستي (نسبة إلى مارسيل بروست) وبكثير من الحنين/ النوستالجيا والانعكاس ما خلّفوه من ذكريات ثقافية حول المكان ومن خصوصيات حميمة « (7)

لذا تحمل البطلة خضراء شامي كثيراً من شخصية الروائية وتجاربها و آرائها في الحياة، فقد قدّمتها للقارئ على أنّها فتاة مسلمة مغتربة قدمت من الشام إلى أمريكا حيث تعيش مع أسرتها الورعة والمتماسكة داخل مجتمع معاد وعنصريّ بشكل فظيع، وتكبر هذه العداوة مع كبر خضرا فتقرّر البطلة أن تعود إلى وطنها الأمّ لتتعرّف على أصلها، ومنشئها وتعيد اكتشاف ذاتها، وهناك تمرّ بجملة من التجارب السعيدة والمؤلمة (حجّ بيت الله، التعرّض للتحرّش، زواجها، ثمّ طلاقها، ..) تقرّر على إثرها ارتداء الحجاب قبيل عودتها إل الولايات المتحدة الأمريكية حيث تضع المؤلّفة أمامها جملة من التحدّيات الجديدة لكنّها تتجاوزها جميعا، وتنتهي الرواية وهي لا تزال تحتفظ بوشاحها النارنجي فوق رأسها.

كتبت مهجة قحف روايتها "الفتاة ذات الوشاح النارنجي" في بيئة مشحونة بالإسلام فوبيا، وحاولت أن تخفّف من هذا الشعور انطلاقا من قناعتها بأنّ الناس أعداء ما جهلوا، لذا راحت تبسط معارفها حول الإسلام "الحقيقي" كما تفهمه أمام القارئ الغربي بلهجة واثقة حينا وتبريرية حينا آخر، فإذا كان بعض الكتّاب الأنجلوفونيين يركّزون على الجانب المشرق للحياة الإسلامية، فإنّ مهجة قحف تعرض الوجه الثاني للقضية، وتحاول أن تبرّر ذلك للقارئ الغربي، فمثلا بسبب الأحكام المسبقة عن اضطهاد المرأة في البلاد الإسلامية، هذه الفكرة التي باتت شبه يقينية في أذهان الغربيين، فإنّ قحف لا تنكر الفكرة جملة، لكنّها تردّها إلى جهل الناس بالدّين أو سوء استغلالهم له، وتعطي بدائل عن ذلك، ومما يحضر للذهن فكرة الخلع الذي طالبت به خضرا أمام زوجها جمعة، فرغم أنّ المطلب بدا متسرّعا ومقحما على أحداث الرواية ومنطقها العام، إلا أنّنا نحس أنّ الروائية توجّه رسالة

مشفّرة للقارئ الغربي، تعلن فيها أنّ الإسلام لا يقيّد المرأة، وها هو يعطيها حقّ فكّ العصمة الزوجيّة إن لم تستطع مواصلة حياتها مع زوجها.

3. استراتيجيات تحدّي الخطاب المهيمن:

تقدّم ميس كسوف القطمي طرحا قريبا ممّا ذهبت إليه، فهي أوّلا «تتفهّم» و»تدرك» ببيعة الجوّ العدائي الذي تكتب فيه قحف، إنّها تعي أنّ قحف تكتب خطابا مضادا (counter discourse) للخطاب المهيمن (Hegemonic discourse) الذي يصنعه ويروّج له الإعلام الغربي والذي يقوم على تقديم صورة كريهة عن العرب والمسلمين ممّا يصعّب اندماج الجالية المسلمة في مجتمعاتهم الغربية الجديدة وبخاصّة أنّ رموزهم الإسلامية قد تعرّضت لتشويه جديد، و ويأتي "الحجاب" على رأس تلك القائمة، الذي حمّل دلالات سلبية وازدرائية متعدّدة، بل ارتبط في تصوّر الرأي العام الغربي بالاضطهاد "تدرك قحف كيف يعمل الخطاب المهيمن على جعل الناس جاهلين بالوقائع، ومنشغلين بقضايا تافهة، وُظّف "الحجاب" وسيلة لصرف انتباه الناس عن الانتهاكات الحقيقية التي تمارسها القوى الامبريالية المهيمنة (...) تلفت قحف انتباهنا إلى أنّ العهد الإمبريالي المعاصر يفبرك الصور كي تخدم مصالح السلطة، وفي حالات كثيرة، لا يواجه العرب باللامبالاة فحسب، بل يصوّرون –بشكل نمطي– في صورة الإرهابيين والمتطرّفين وليس الضحايا» [8]

ولذلك تتساءل على لسان إحدى شخصيات الرواية «متى كانت الروح في سلام؟ هناك قتال في الصحراء الغربية، والأفغان يملؤون الملاجئ في إيران وباكستان، ومسلمو (Patani) مطارَدون في مجتمعهم الذي تسوده البوذية، والحياة في لبنان جحيم الموت، لا أحد من هؤلاء يشكّل جزءا مهمّا من «الأخبار» في أمريكا، في حين تروي أدقّ تفاصيل حياة الرّجال الأمريكان الذين وقعوا رهائن، وتروي دموع وآمال أمّهاتهم وآبائهم وأجدادهم» [9]

وهذا يعني أنّ الحكومة وصنّاع القرار الأمريكي يتجاهلون مآسي العرب التي يشكّلون –بشكل أو بآخر– طرفا فيها، ويختلقون مشكلات وهمية كالحجاب والإسلام فوبيا، وغيرها من القضايا التي يروّج لها الخطاب الغربي/ الأمريكي تحديدا في أدبيّاته المتنوّعة، وأقلّها أنّ العرب «هم «شيوخ» البترول، يُفترض أنّهم سيّئون لأنّهم سبّبوا لأمريكا أزمة الطاقة» [10]

ترى ميس كسوف القطمي أنّ قحف وظّفت ستّ استراتيجيات –وقد ذكرنا بعضا منها كما سنرى– لتحدّي الخطاب الغربي المهيمن، ورتّبتها الناقدة كما يأتي:

- «تفكيك الخطاب السائد Rupturing the dominant narrative.

- الربط Juxtaposition.
- توظيف تمثيلات إيجابية The use of positive representatives.
- نزع الولع. DE- Fetishization or De Reification
- إنطاق الشاهد Bearing Witness
- إعادة سرد التاريخ Retelling The history [11]

أ. **تفكيك الخطاب السائد**: وذلك بوضع مقولاته على محكّ التجربة والوقائع، فقد روّج ذلك الخطاب بأنّ المسلمين عنيفون ومتطرّفون وإرهابيون، ولكن قحف تعطي أمثلة واقعية عن عنف وتطرّف وإرهاب المعادين للمسلمين (Anti Muslims) ولا أدلّ على ذلك من ذكرها أنّ مركز الدعوة الإسلامي (Dawah Center) كان عرضة للتخريب من المعادين للمسلمين، إذ هوجم المركز حين كانت النساء يصلّين فيه، وقد عثرن لاحقا على بيض فاسد وطماطم مرمية عند المدخل وأوراق التواليت في كلّ مكان، كما لطّخت النوافذ بعبارات بذيئة، وقد سبق أن ذكرنا أمثلة أخرى من الرواية عن عنف المتطرّفين غير المسلمين تجاه الجالية الإسلامية (كاغتصاب صديقة خضرا، وتعرّض البطلة للعنصرية، ...)

وإذا كان الخطاب الغربي المهيمن اعتاد أن يصوّر المرأة المسلمة في صورة الجاهلة، والمتخلّفة، والضحيّة المغلوبة عن أمرها، فإنّ قحف تقدّم بدائل نسويّة كثيرة تفكّك هذا الخطاب، ومنها:

أمّ خضرا: التي كانت تأمل بعد حصولها على البكالوريا أن تدخل قسم الطبّ كي تصبح طبيبة، وتفتح عيادة للفقراء، لكنّها اختارت طوعا أن تضحّي بحلمها من أجل أن تتفرّغ لتربية أبنائها.

جدّة خضرا: تتحدّى والديها، وتتزوّج جركسيا، وهي على اقتناع بأنّها لم تخالف أوامر **الله**، تقول: »ما الجرم في ذلك؟ هل خالفت أمر **الله** ورسوله؟ لا لم أفعل !! إنّهما (تقصد والديها) من على ضلال، ألم يقل الرسول إذا وجدتم من ترضون دينه وخلقه، فتقبّلوه؟ وهل قال: إلا إذا كان جرسيّا؟ هل قال النبي أنّه يجب أن يكون من أهلكم؟ « [12]

حنيفة: سائقة محترفة تشارك في مسابقات السيّارات، وهي أمّ وزوجة، وأوّل امرأة مسلمة في أنديانبوليس (Indianpolis) تصبح سائقة محترفة. ولم تتورّع قحف حتّى عن ذكر نماذج نسويّة «مرفوضة» في العرف الإسلامي، ولكنّها تسهم في تفكيك الصورة النمطيّة التي رسّخها الخطاب السائد، ومن تلك النّماذج نذكر:

بيتسي (Bitsy): مسلمة إيرانية علمانية، غيّرت اسمها من فاطمة الزهراء إلى بيتسي

حتّى تستطيع أن تتأقلم بسهولة أكبر مع متطلّبات المجتمع الأمريكي وثقافته.

عفاف: فتاة خليجية تقابلها خضرا في أثناء زيارتها للمشرق، وهي واحدة من آلاف الفتيات المسلمات اللاتي أجبرن على ارتداء الحجاب ثمّ نزعنه عند أوّل فرصة أتيحت لهنّ.

ب. الربط: وذلك حين تضع المواقف العدائية للطرفين (المسلمين، وغير المسلمين) وجها لوجه، فحين اختطف بعض الإيرانيين رهائن أمريكان أعقبت ذلك بذكر اعتداء بعض المتطرفين الأمريكان على الجالية المسلمة.

ت. توظيف تمثيلات إيجابية: في إطار نقضها للخطاب السائد عن المسلمين «الإرهابيين» و«البرابرة» تقدّم قحف صورا إيجابية بديلة عن العرب والمسلمين، وتسلّط الضوء على دورهم السابق في تقدّم الحضارة الإسلامية، فها هو أبو خضرا «يحدّث أبناءه عن الاختراعات والمكتشفات التي حققها العلماء المسلمون، فيحيلهم إلى ابن سينا الذي أسهم في تقدّم البصريات في القرن الحادي عشر» [13] والمعلومة طبعا ليست للصغار بل هي للقارئ الغربي علّه يغيّر رأيه عن العرب بعيدا عن الصورة النمطية التي قدّمها له الإعلام الغربي منذ عقود أو قرون.

وفي سياق آخر ها هي تتحدّث عن خطف طلبة إيرانيين مجموعة من الرهائن الأمريكيين، فتحاول أن «تبرّر» صنيعهم: « تركوا النساء يذهبن لأنّهم يعلمون أنّ النساء لا يتحكّمن في إدارة أمريكا، وتركوا الرجال السود يذهبون لأنّهم يعلمون أنّ السود مضطهدون مثل سكّان العالم الثالث من قبل الأمريكان (...) كلّ واحد في مركز الدعوة يدرك أنّ خطف الرهائن في الظروف العادية عمل شائن، لكنّهم يتفهّمون لم فعل الطلبة الإيرانيون ذلك، لقد عانى الإيرانيون من حكم الشاه الذي اعتقل المحتجّين، وعذّب السجناء، وشجّع الخمر والفساد، وسعى إلى محو الهوية الإسلامية في هذا البلد ﴿تقصد إيران﴾« [14]

ث. نزع الولع: ترى ميس القطمي أنّ قحف ألحّت في روايتها على فكرة أنّ «النساء المسلمات المتحجّبات قد اُضطُهدن وأُخرسن سواء من الرجال العرب المسلمين أم من بعض النّسويات الغربيات (Western feminists) اللائي لم يستطعن أن يرين أبعد من الحجاب. امتدّ اضطهادهنّ (النساء المحجّبات) من النظام البطريركي إلى بعض النسويّات اللائي تبنّين الخطاب المهيمن» [15] ففي الفصل الرابع من الرواية تعجّب زميلات خضرا الأمريكيات منها حين تدّعي أنّها تناضل من أجل المرأة المعاصرة التي يمتهن جسدها ضمن ما يسمّى تجارة الرقيق البيض « سألتني مسز بالي: ألا تذكرين بربّك مجالس الحريم في مجتمعاتكم؟ فسألت بدهشة: ال.. حري.. م؟ فنظرت بازدراء: هكذا تخبرنا الليالي العربية، وخمارك دليل على ذلك.. » [16]

ج. إنطاق الشاهد: قدّمت الروائية شواهد واقعية حول اضطهاد المرأة المسلمة بسبب حجابها، ومقاومتها لهذا الاضطهاد وثمن تلك المقاومة، وقد ذكرنا بعضا منها في الصفحات السابقة، ويمكن أن نضيف موقف خضرا مع صديقتها في الغرفة الجامعية التي كانت تفزع حين تراها ترتدي خمارها، فتسألها: أنت واحدة من المتعصّبين، أليس ذلك؟ و لا تكاد خضرا تحسّ بالإهانة لأنّها اعتادت على هذا السؤال، و لأنّها شعرت بنبرة براءة وجهل في سؤال صديقتها !!!

ح. إعادة سرد التاريخ: تعيد قحف قراءة تاريخ بعض الأحداث المعاصرة بعيدا عن صياغة الخطاب الغربي المهيمن بل من منظور من تسمّيهم الناقدة ما بعد الكولونيالية غاياتري سبيفاك «التابعين» (Subalterns) وهم العوام أو النّاس العاديون الذين صنعوا تاريخ بلادهم لكن لم يستطيعوا أن يسهموا في كتابته، ومن هؤلاء جدّة خضرا التي التقتها في دمشق، وروت لها قصّة أخرى لم يذكرها التاريخ الرسمي عن أحداث 1980 وبالضبط حين منعت الحكومة السورية المواطنات من ارتداء الحجاب وهدّدتهن بالعقاب إن خالفن الأوامر، وشرح لها خالها السيّد مازن كيف أنّ أباها السيّد وجدي أسهم بصفته إسلاميا في «تسييس الحجاب» وهذا ما لم تسكت حياله الحكومة السورية، ..

ورغم أنّني أتّفق مع الناقدة ميس القطبي في معظم ما ذهبت إليه لكن بدا لي التصنيفات أو ما تسميه «استراتيجيات المقاومة/ التحدّي» شكلية ومتشابهة ويغني بعضها عن بعض، ويمكن أن نضيف إليها –3 استراتيجية أخرى: **وهي كالآتي**:

- **النقد الذاتي**: حيث تحاول أن تقدّم بأكبر قدر من الموضوعية سلبيات الجالية المسلمة بعيدا عن الطرح المتطرّف الذي يقدّمه الخطاب الغربي المهيمن، والطرح المثالي الذي تروّج له بعض الأدبيات العربية الأنجلوفونية، فهي تحذّر زملاءها من الكتّاب العرب الأمريكان «من أن يكونوا كتّاب صدى وردّ فعل، فإن يكنْ للغرب نماذجه النمطية عنّا فلا يعني أنّ الخوف مما سيظنّه الغرب عنّا يحدّد كلّ شيء نكتبه، فهذا تعطيل للذات (self-crippling) إنّه ردّ فعل عن ردّ فعل» [17] ، ومن تلك المظاهر السلبية التي تطرحها نذكر:

النفاق/ الازدواجية: تدين الكاتبة ممارسات بعض المسلمين الدينية التي تتّسم بالنفاق والازدواجية من باب «يقولون ما لا يفعلون» ممّا يعطي انطباعا وإدراكا سلبيين عن الإسلام لدى الآخر غير المسلم الذي لا يدرك بعد الفروق بين تعاليم الإسلام وما يفعله بعضهم باسم الإسلام، ومن مظاهر النفاق نذكر أنّ مركز الدعوة الذي تنخرط فيه عائلة الشامي كلّها أكّد مرارا على أنّ لا عنصرية في الإسلام، ولا فضل لعربي على عجمي إلا

بالتقوى ولكن حين أراد أخو خضرا أن يتزوّج فتاة مسلمة، متعلّمة وجميلة، ولكنّها سوداء، رفض أهله الموضوع جملة وتفصيلا.

تنميط الآخر: تفاجئنا قحف بأنّ العرب والمسلمين ليسوا ضحايا التنميط فقط بل هم أيضا ينمّطون الآخر، وذلك من خلال التعميم والمبالغة والأحكام المسبقة، فمعظم الشخصيات المسلمة في الرواية تتّفق على أنّ «الأمريكان يلعنون، ويدخّنون، ويشربون، (...) والأمريكان يواعدون، ويزنون، ويمارسون الرّذيلة، عائلاتهم مفكّكة، ولديهم حالات طلاق كثيرة، الأمريكان ليسوا كرماء ومضيافين، مثل العمّ عبد الله والعمة فاطمة.. يعتقد الأمريكان أنّ الفرد أهمّ من العائلة، وأنّ المال أهمّ من أيّ شيء [18] وفي سياق آخر ترى السيدة ابتهاج– أمّ خضرا – أنّ «كلّ» الأمريكان لا يعنون بالطهارة لذا تتحرّج من استعمال حاجياتهم، «فما إذا كان الشخص الذي استعمل المغسل قبلك لديه كلب؟ لا يمكن أن تفهم أبدا الأمريكان !! البول، والقيء، ولعاب الكلب، والبيرة كلّها نجاسات، لا يهتمّ الأمريكان مطلقا بالنجاسات... » [19]

اضطهاد المرأة: تفضح الروائية ممارسات الرجال المسلمين ضدّ المرأة المسلمة باسم الدين تارة والعرف تارة أخرى، فمثلا تصدَم خضرا بزوجها يمنعها من ركوب الدرّاجة بحجّة أنّه سلوك مضادّ للإسلام، كما يعارض خروجها في المظاهرات وممارستها نشاطات خيرية «كلّ مرّة تخرج فيها للتظاهر، يتذمّر جمعة (زوجها) متسائلا: هل يجب أن تكوني أنت؟ دعي شخصا آخر يتظاهر، ليس هناك نقص في الناس !! هل يجب أن تكون زوجتي؟؟ » [20]

التركيز على طقوس الدين أكثر من روحانياته: تنتقد الروائية من خلال بطلتها تركيز الشخصيات المسلمة على الجانب الطقوسي للدين أكثر من روحانياته، إذ نجدها تركّز على حركات اليدين في أثناء الصلاة أكثر من الخشوع، وشكل الحجاب، ولون الخمار أكثر من قيمة العفة، وغيرها «قُدِّمت عائلة خضرا ومجتمعها بصفتهم أسياد الرقابة الذاتية (Masters of self- censorship) متجاهلين حقيقة كونهم أناسا عاديين لا يتوجّب عليهم أن يكونوا نماذج للتديّن والفضيلة" [21] وبعبارة أخرى، نجدها تضغط على نفسها كي تكون نماذج للشخصية المسلمة التقية أمام الآخرين ممّا أوقعها في ازدواجية وتناقض وأحاديّة النظرة لا ترى الأشياء إلا بلون الأبيض أو الأسود!!

كان النقد الذاتي الذي قدّمته قحف استراتيجية تتحدّى بها الخطاب المهيمن والأدبيات الأنجلوفونية السائدة التي قدّمت صورا أحادية للشخصية المسلمة سوداء قاتمة لدى طرف، وبيضاء ناصعة لدى طرف آخر، كما كانت هذه الاستراتيجية من جهة أخرى نقطة انطلاق

أمام البطلة خضرا الشامي لتبحث عن معنى جديد للهويّة المسلمة، ولمراجعة مقولات الإسلام، الأمركة، العروبة..

كانت إشكالية خضرا الأساسية هي كيف تكون أمريكية ومسلمة في الوقت نفسه، فأمريكا ترفض كونها مسلمة وناصبتها العداء، وقد قدّمنا شواهد عن ذلك العداء في الصفحات السابقة، ومن جهة أخرى هي غير قنوعة بشكل التديّن الذي تعلّمته في عائلتها ومجتمعها «فقد قادها فهمها الضيّق للممارسات الإسلامية إلى أن تخسر ذاتها، وذلك بسبب اعتقادها الخاطئ أنّ الإسلام لا يقدّر الذات لكن يقدّر الفضيلة الجماعية» [22] فقامت برحلة بحثا عن هويّة جديدة تجمع بين طرفي المعادلة الصعبة (مسلمة، أمريكية) . محاولة أن تجيب عن سؤال الرواية الأساس: ما مدى اندماج المسلمين وهم قلّة في المجتمع الأمريكي؟ بعبارة أخرى: إلى أيّ مدى يستطيعون الحفاظ على هويّتهم المسلمة دون أن يحول ذلك أمام اندماجهم الكامل في المجتمع الجديد؟

يتجدّد إيمان خضرا الشامي في أثناء زيارتها دمشق، وتعرّفها على شاعر لا نجزم إذا كان شخصا حقيقيا أو خياليا، فتعود إلى صلاتها بعد أن هجرتها لأنّها تدرك أنّها كانت تؤدّيها كواجب فقط، وتتعلّم الحبّ، حبّ نفسها، وحب الآخرين، وحبّ الله، بل إنّها رأت في الحاخام اليهودي نموذجا للجدّ المثالي الذي تمنّته، بل تعلّمت كيف تكون متديّنة بعيدا عن الشكليات والطقوس والتناقضات التي تربّت فيها..

وقد عادت خضرا إلى أمريكا وهي أكثر إيمانا بهويّتها المسلمة حين تمسّكت بالحجاب عنوانا لها، وإن نزعته في ظروف لقناعة خاصّة سنذكرها لاحقا، وتمسّكت أكثر بهويّتها الأمريكية فما إن وطئت قدمها أرض أمريكا حتّى صاحت «مرحبا أمريكا، أرض الوطن» [23]

وقد أصبحت خضرا أكثر تمثّلا لفكرة السيد وجدي إمام مركز الدعوة حول علاقة أمريكا بالإسلام و المسلمين، فهو يقول في أحد خطبه: « فمن نواحي كثيرة، تبدو أمريكا أكثر إسلاميّة من بلدان العالم الإسلامي، فلم يستفحل فيها الفساد، وتستطيع أن تدخل مكتب القاضي دون حاجة إلى أن ترشو السكرتير من أجل أن تقضي مصلحة بسيطة و مهمّة، و لا تعتقدوا أنّنا سنتوقّف عن الاحتجاج ضدّ سياسات أمريكا الخارجية المشينة والظالمة في حقّ العالم الإسلامي، ولكن دعنا نواجه الأمر هنا، في داخل أمريكا، هناك كثير من المزايا: القانون والنظام، الديمقراطية، حرّية العمل، حرّية ممارسة الدّين، وهذه مزايا إسلاميّة، فأمريكا هي إسلام بلا مسلمين، وبلداننا الأصلية المسلمة المريضة والمتعفّنة هي بلد مسلمين بلا إسلام.. » [24]

ويستحضر الذهن طبعا جواب الشيخ محمد عبده عن سؤال تلامذته عن رأيه بين «هنا» و«هناك»، فأجاب «هنا/ مسلمون بلا إسلام، و«هناك» إسلام بلا مسلمين.. »

- **الحجاب عنوان الاضطهاد أم عنوان الهويّة:**

يمثّل «الحجاب» موضوعا مركزيا في رواية «الفتاة ذات الوشاح النّارنجي» بحضوره اللفظي والدلالي على امتداد المتن الروائي بدءا من العنوان «.. ذات الوشاح النّارنجي» لما يحمله من دلالات ورموز وأفكار تحاول الكاتبة أن تعبّر من خلالها على أطروحاتها وموقفها من الحجاب والهويّة الدينية/ الوطنية، ونعني «الهويّة العربية/ المسلمة– الأمريكية»

الحجاب.. في مرآة الآخر:

طرحت الكاتبة مفهوم الغرب عن الحجاب، إذ حمّله دلالات سلبيّة وتأويلات ازدرائية تحطّ من قدر المرأة المسلمة، وتردّها قرونا إلى الوراء، فصار الحجاب معادلا للرجعيّة، واضطهاد المرأة وكبتها، وسجنها، وفي هذا السياق، سنستشهد بموقف ترويه الكاتبة آمال عبد الرازق تقول» لا أنسى أبدا مقالا مصوّرا في (New York Times) في 31 ديسمبر 2001 بعنوان «وجه الإسلام» يظهر صورة امرأة محجّبة إلى جانب صور برجي المركز التجاري العالمي المنهارين، يربط المقال اضطهاد النساء العربيات المسلمات بالعنف الإرهابي، في الواقع كانت هناك تغطية إعلامية متفجّرة للمرأة الأفغانية المبرقعة منذ الحرب على الإرهاب التي عقبت أحداث 11 سبتمبر 2001» [25]

يتحجّج الغرب بالحجاب بوصفه عنوانا لاضطهاد المرأة المسلمة للتدخّل في شؤون بلاد الشرق بمظهر منقذ المرأة الشرقية من طغيان الرّجل الشرقيّ المسلم وجبروته...

وانطلاقا من هذا التصوّر تعرّضت خضرا لتحرّشات مستمرّة ونزع حجابها أكثر من مرّة، وهذا ما أثار بداخلها أزمة هويّة إشكاليتها الأساسية– كما ذكرنا سابقا– هي: كيف تكون مسلمة وأمريكية في الوقت نفسه؟ . «إنّها أزمة، أزمة جيل بأكمله، كيف تكون مسلمة وأمريكية في الوقت نفسه؟ ، وما يعمّق هذا الإشكال هو أنّ «الدّين» يُعامَل كثقافة لا بدّ أن تُركَن جانبا لأنّها لا تتوافق مع كونك أمريكيا، فهذه التوليفة بين كونك مسلما وأمريكيا في آن واحد غير مفهومة لدى كثيرين.. » [26]

ولم تمسّ الأزمة النساء فقط بل حتّى الرجال المسلمين الأمريكان، فها هو عبد الهادي يخطب في عرب أمريكا بعد أحداث 11/ 9 قائلا:

« تجنّب قدر ما استطعت كونك عربيّا، تجاوزه إن قدرت، ذب في هذه البوتقة الكبيرة، لا تناد بالتنوّع والتعدّد الثقافي، هذا ليس الوقت المناسب، من الأفضل أن تنقذ حياتك،

والأفضل لك أكثر أن تعود إلى وطنك أيّها الأجنبيّ، ولكن ماذا إذا لم يكن هناك وقت للعودة؟ ! ماذا إذا كان هذا هو وطنك؟ ! أولاء مزدوج؟ ! شخصيّة منفصمة؟ ! ، مشتّت؟ ! لست أمريكيّا حقيقيا؟ ! ولكن من هم «الأمريكان الحقيقيون» الذي لا يزالون حولنا؟ وكم عددهم؟ (27)

ويزداد الأمر تعقيدا مع نساء أمريكا المسلمات اللاتي اخترن الحجاب عنوانا لهويّتهنّ، وخضرا واحدة منهنّ، عانت الأمرّين من رفض أمريكا لها، فقامت برحلة إلى الشرق– كما ذكرنا– أعادت فيها استكشاف هويّتها، وأعادت فيه نظرها للحجاب، إذ أصبحت تجده دليل تحرّر المرأة وليس اضطهادها، فالحجاب» لا يقف بمنأى عن ممارسات المرأة المسلمة، لكنّه يرتبط ارتباطا وثيقا بالبساطة، والطّهارة، والتحرّر من الماديّة (...) ، فحين ترتدي النّساء الخمار فلن يبقين تحت رحمة المظاهر، ولا ضحايا التشيؤ، فالزّيّ الإسلاميّ والخمار يحرّران المرأة من الاستهلاكيّة وسلطة الموضة على أجسادهنّ، وتمثيلهنّ في المجتمع» (28)

عادت خضرا إلى امريكا برؤية جديدة للحجاب –والخمار تحديدا– تلخّصت في صورة الغلاف التي اختارتها الكاتبة لبطلتها، وهذه نسخة منها:

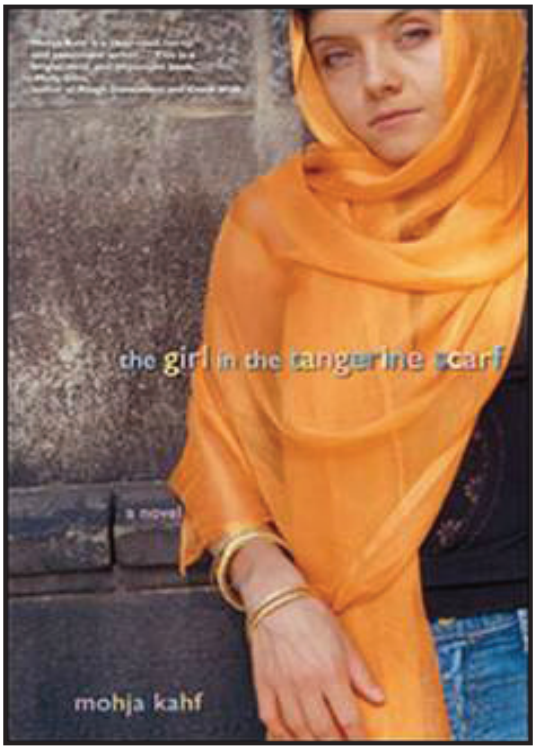

اختارت الكاتبة بطلة شابة جميلة لم ترتد الحجاب لتخفي قبحا أو تستر عيبا، ونلاحظ عينيها الخضراوين اللتين ترتبطان بالجمال الغربي، أي أنّ الحجاب ليس حكرا على المسلمة الشرقية ذات العينين السوداوين والبشرة السمراء، كما يلفت انتباهنا لون الخمار البرتقالي، والذي ثبّتته في عنوان روايتها، وهو لون حيويّ، مليء بالحياة والطاقة، مرتبط بالشباب والجمال، وذو نكهة أنثويّة عطرة، وهنا تخالف قحف صورة الحجاب الذي تروّج له الأدبيّات الغربية التي عادة ما تربطه بالسواد وكلّ متعلّقاته الرمزيّة كالحزن، والكآبة والقتامة، والشيخوخة، والبؤس.. كما نلاحظ سروال الجينز الذي ترتديه الفتاة ممّا يشي باهتمامها بالموضة المعاصرة وبخاصّة أنّ الجينز زيّ غربيّ بامتياز، تظهر الصورة أيضا حرص الفتاة على أناقتها من خلال طاقم الأساور الذي ترتديه، ولا نفوّت تلك النظرة الجريئة والمباشرة التي تتوجّه بها إلى القرّاء بعيدا عن صورة المرأة المحتشمة التي تلتصق نظراتها بالأرض، وفي هذا المستوى تتحدّى الكاتبة صورة المرأة المسلمة المحجّبة التي كرّستها الرؤية الشرقية السّلفيّة...

4ـ الخاتمة:

كان هاجس هذه الدراسة الأوّل هو الإجابة عن سؤال ضمني هو: هل هناك نسويّة عربيّة أصيلة ومستقلّة؟ يمكن الإجابة ولو بحذر بنعم، فقد لمسنا طرحا نسويّا عربيّا له أجندته الخاصّة قوامها قضايا المرأة العربية التي أصرّت الكتابات النسوية العربية على أنّها تختلف على أجندة النسوية الغربية، كما كان للخطاب النسوي الأمريكي العربي مرجعيته الخاصّة وهي الثقافة الإسلامية، وهذا ما يناقض أطروحات الخطاب الغربي (الذكوري والنسوي) التي ربطت اضطهاد المرأة العربية بالإسلام، وأصرّت النسوية العربيّة على أنّ الإسلام هو من حفظ حقوق المرأة وراعى مصالحها...

الهوامش:

1. *Majaj (Liza Suhair) : Arab American Literature: Origins and Developments American Studies Journal, Nr52, Feb 2008,p04*
2. *Abdelrazek (Amel) : Shehrazad's Legacy : Arab American Women Writers and the Resisting, Healing and Connecting Power of their Storytelling in GENDER, NATION, AND BELONGING ARAB AND ARAB- AMERICAN F E M I N I S T P E R S P E C T I V E S, The MIT Electronic Journal of Middle East Studies, Vol. 5, Spring 2005 ,p152*
3. *Abdelrazek (Amel) : Shehrazad's Legacy : Arab American Women Writers and the Resisting, Healing and Connecting Power of their Storytelling,p141*
4. *Abdelrazek (Amel) : Shehrazad's Legacy : Arab American Women Writers and the Resisting, Healing and Connecting Power of their Storytelling,p140*
5. *Vilarrubias (Marta Bosch) : 'In love, she remains whole': Heterosexual Love in Contemporary Arab American Poetry Written by Women, Coolabah, No. 5, 2011, , Observatori: Centre d'Estudis Australians,Australian Studies Centre, niversitat de Barcelona,p63*
6. *Al- Maleh (Leila) , Arab Anglophone Literature : An Overview , in Arab Voices in Diaspora; Critical Perspectives on Anglophone Arab literature, ed; Radope Bv, Amsterdam, New York, 2009,p 31*
7. *Al- Maleh (Leila) , Arab Anglophone Literature : An Overview, p 29*
8. *ALKUTAMI (Mais Kusuf) : Feminist Resistance in Contemporary American Women Writers of Color: Unsettling Imagesof the Veil & the Home in West Culture (Doctorate Thesis) , Indiana University of Pennsylvania,Auguest,2009,p 102- 103*
9. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, , Caroll &Graf Edition, 2006, p122-*
10. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p83*
11. *ALKUTAMI (Mais Kusuf) : Feminist Resistance in Contemporary American Women Writers of Color: Unsettling Images of the Veil & the Home in West Culture,p108*

12. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p273*
13. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p120*
14. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p119- 118*
15. *ALKUTAMI (Mais Kusuf) : Feminist Resistance in Contemporary American Women Writers of Color: Unsettling Images of the Veil & the Home in West Culture ,p110*
16. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, 220*
17. *Ameri (Firouzeh) : Veiled Experiences: Re- writing Women's Identities & Experiences in Contemporaty Muslim Fiction in English, (Doctorath thesis) Murdoch University, 2012,p168*
18. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p125*
19. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p04*
20. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p241*
21. *Ameri (Firouzeh) : Veiled Experiences: Re- writing Women's Identities & Experiences in Contemporary Muslim Fiction in English,p172*
22. *ALKUTAMI (Mais Kusuf) : Feminist Resistance in Contemporary American Women Writers of Color: Unsettling Images of the Veil & the Home in West Culture ,p139*
23. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p313*
24. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p143- 144*
25. *Abdelrazek (Amel): Shehrazad's Legacy : Arab American Women Writers and the Resisting, Healing and Connecting Power of their Storytelling,p148*
26. *ALKUTAMI (Mais Kusuf): Feminist Resistance in Contemporary American Women Writers of Color: Unsettling Images of the Veil & the Home in West Culture ,p119*
27. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, p73*
28. *ALKUTAMI (Mais Kusuf): Feminist Resistance in Contemporary American Women Writers of Color: Unsettling Images of the Veil & the Home in West*

المصادر والمراجع:

اولاً- المصادر:

1. *Kahf (Mohja) : The Girl in The Tangerine Scarf, , Caroll &Graf Edition, 2006.*

ثانياً- المراجع:

1. *Abdelrazek (Amel) : Shehrazad's Legacy : Arab American Women Writers and the Resisting, Healing and Connecting Power of their Storytelling in GENDER, NATION, AND BELONGING ARAB AND ARAB- AMERICAN F E M I N I S T P E R S P E C T I V E S, The MIT Electronic Journal of Middle East Studies, Vol. 5, Spring 2005.*
2. *ALKUTAMI (Mais Kusuf) : Feminist Resistance in Contemporary American Women Writers of Color: Unsettling Imagesof the Veil & the Home in West Culture (Doctorate Thesis) , Indiana University of Pennsylvania, Auguest, 2009.*
3. *Al- Maleh (Leila) , Arab Anglophone Literature : An Overview , in Arab Voices in Diaspora; Critical Perspectives on Anglophone Arab literature, ed; Radope Bv, Amsterdam, New York, 2009.*
4. *Ameri (Firouzeh) : Veiled Experiences: Re- writing Women's Identities & Experiences in Contemporaty Muslim Fiction in English, (Doctorath thesis) Murdoch University, 2012*
5. *Majaj (Liza Suhair) : Arab American Literature: Origins and Developments American Studies Journal, Nr52, Feb 2008.*
6. *Vilarrubias (Marta Bosch) : 'In love, she remains whole': Heterosexual Love in Contemporary Arab American Poetry Written by Women, Coolabah, No. 5, 2011, , Observatori: Centre d'Estudis Australians, Australian Studies Centre, niversitat de Barcelona.*